الديكـارتـيـة

حياة ديكارت:

ولد رينيه ديكارت في 31 مارس من عام 1596م بمدينة لاهاي بإقليم التورين بفرنسا على بعد نحو 300 كيلومتراً من الجنوب الغربي لباريس؛ وعلى بعد 50 كيلومتراً من مدينة تور عاصمة التورين، وأبوه يواقيم ديكارت كان مستشاراً بمحكمة بريتاني؛ الإقليم الواقع في الشمال الغربي من التورين (أما أمه فهي جان بورشار، كانت بنت حاكم مقاطعة بواتييه في جنوب تور، ينتمي ديكارت إذن إلى أسرة بورجوازية، إلى أسر نبلاء الثوب. وقد ولد ليواقيم ديكارت من هذا الزواج صبي وبنت كل منهما أكبر من الفيلسوف، ثم ولد له ابن بعد ميلاد الأخير بأكثر من سنة؛ ولم يعش هذا الابن إلا أياماً بعد وفاة والدته.

فقد ديكارت والدته وهو لم يجاوز سنته الأولى بكثير كما فقد بسكال[1] أمه وهو في سن الثالثة، إلا أنه لم يكن لموت والدته الآثار نفسها التي كانت لوفاة والدة بسكال؛ لعدة أسباب نعرف منها واحداً على الأقل وهو أن والد ديكارت جعل له مرضعة عنيت به أفضل العناية، وبقي ديكارت مخلصاً لها طول حياته)[2].

يبدو حسب ما رأى الباحث أن ديكارت اهتم بالاحتفاظ بأخبار وفاة والدته بدليل أنه أشار إلى تلك الوفاة في خطاب كتبه للأميرة أليصابات وهو في سن الخمسين[3].

---

(1) بسكال أحد فلاسفة القرن السابع عشر ميلادي وهو صاحب نظريات عملية وكان معاصراً لديكارت.

(2) ديكارت/ نجيب بلدي/ ص 21.

(3) ينظر خطاب ديكارت إلى الأميرة أليصابات في مايو أو يونيه سنة 1645 ص 948.

ولكن لأمر ما أخطأ في ذكر تلك الأخبار وتفسيرها، فهو إذ يرشد الأميرة إلى علاج نفسي لمرض ألم بها، يذكر لها أنه اتبع العلاج نفسه في سعال لازمه حتى سن العشرين، وكان قد ورثه عن مرض رئوي ألم بوالدته أثناء حملها به وتوفيت منه بعد ذلك الميلاد بأيام.

وغريب أن يقارن ديكارت مرض الأميرة بمرض والدته، إلا أن تكون تلك المقارنة دليلاً على ما يكنه للأميرة من مودة عميقة.

ولكن الأغرب من ذلك أن يخطئ على النحو المذكور بصدد موت والدته الذي أعقب ميلاده، بأكثر من سنة والتي تلي مباشرة ميلاد ابن جديد لم يعش طويلاً، وربما أخفيت أمر هذا الميلاد على ديكارت كما أخفيت عليه تفاصيل ذلك الموت.

ثم بعد ذلك (يقص علينا ديكارت في السنين الأخيرة من حياته شيئاً من ذكريات طفولته: يحدثنا أحياناً عن الريف الذي كان يعيش فيه، وعن عادات المزراعين في ذلك الريف، وعن جمال القرى الفرنسية التي لا يعدلها في نظره شيء مما زاره في العالم، بل لا تعد لها تلك العزلة الهولندية التي اختارها لنفسه العشرين سنة الأخيرة من حياته)[1] هذا دليل صارخ على أن ديكارت لم ينس في يوم من الأيام أنه فرنسي، وأنه كان مخلصاً لوطنه.

ويقص ديكارت على صديقه شانو حادثاً من أحداث طفولته يؤيد به رأيه في أن العاطفة وليدة أحداث الماضي البعيد وعاداته: أحب بنتا من سنّه كانت حولاء، ثم أصبح بعد ذلك ميالاً إلى كل فتاة أو امرأة حولاء[2] أعود

---

(1) يراجع خطابه إلى براسيه في 23/ 4/ 1649م.

(2) ينظر خطابه إلى شانون في 6/ 8/ 1647م.

وأؤكد أن هذه الذكريات التي رأى ديكارت تسجيلها فيما كتب لأصدقائه إنما هي دليل على أن الرجل لم ينبذ ماضيه ولم يكرهه، وإن أخطأ في تفاصيله أو تفسيره.

درَاسته:

وإذا انتقلنا من تلك القصص عن طفولته إلى سني مدرسته، وجدنا هنا أيضاً صعوبة كبرى في ذكر وقائع دقيقة خاصة؛ بحياة الفيلسوف، وهناك اختلاف حتى بصدد ميعاد تاريخ دخوله المدرسة حيث نجد أن مؤرخه باييه يذكر أنه دخل مدرسة (لافيلس) للآباء اليسوعيين في إبريل 1604[1]، أي بعد أشهر قلائل من افتتاح تلك المدرسة، ولكن الدقة التاريخية تجعل أحدث مؤرخي ديكارت يسجلون دخوله المدرسة، في عام 1606م[2]، ومما يؤيد هذا أن خروجه من المدرسة كان في عام 1614م. على وجه التأكيد، ولم يكن من المعقول أن يبقى بها أكثر من ثماني سنوات، ولم نعرف أنه رسب أو توقف عن الدراسة زمناً ما.

وعن الدراسة وبرنامجها ومراحلها ومدى إفادة ديكارت منها؛ لدينا نص (المقال في المنهج)[3] يبدو فيه ديكارت صريحاً واضحاً كل الوضوح، غير أن هذا النص لم يكتب إلا في عام 1637م. ويبدو واضحاً في أسلوبه من أن مراحل تلك الثقافة كانت في نظر ديكارت نماذج لها قيمتها الدائمة، وإن لزم إحلال أخرى محل بعضها على الأقل. ويذكر لنا أنه درس القصص والتاريخ

---

(1) ديكارت/ أدريان باييه/ ج 1 ـ ص 16 ـ 19.

(2) ديكارت/ الكييه/ باريس 1956/ ص 16.

(3) ص 93 ـ 97.

القديم دراسةً كافية[1] أمّا عن الشعر والخطابة فهو لا ينكر جمالهما وروعتهما وأثرهما في حياة النفس[2]، وكان تدريس اليسوعيين لتلك المواد في مدارسهم بفرنسا يفوق أي تدريس لهما في العالم الأوروبي كله[3].

وإذا نظرنا إلى ديكارت في هذه المرحلة نظرة فاحصة نجده في نهاية المطاف يضع قاعدة أولى لفلسفته ويجعل منها منطلقاً حيث يقول (أن يخضع الفيلسوف لتشريع بلده وتقاليده وأن يبقى على الدين الذي أنعم الله عليه به)[4].

وطبيعي بعد كل ما ذُكر أن يكون ديكارت، أديباً، محافظاً، متبعاً لما يرى من قواعد، لكن في حرية، فلم يطالبه معلموه بأكثر من ذلك. هذا بوجه عام موقفه من ثقافتهم الأدبية ومبلغ تأثيرها فيه.

أما (نقده للثقافة العقلية في ناحيتها الرياضية والفلسفية، فقد كان كما هو معروف لاذعاً شديداً)[5].

أحلام ديكارت ومداها:

لما رآه الباحث من أهمية هذه الأحلام التي اعتصرت عقله؛ ومداها في حياة الفليسوف، رأى الباحث أن يوردها ومن ثمَّ يتكلم بإيجاز عن علاقتها بتلك المشروعات العلمية لديكارت. كان ديكارت في الحلم الأول يسير في الطريق، فأحس فجأة أثناء سيره بفزع وارتعاب شديدين أفقداه توازنه، فحاول مُسرعاً استرجاع هذا التوازن، وعندئذٍ فاجأته ريح عنيفة قلبت

---

(1) المقال في المنهج ص 95.

(2) المقال في المنهج ص 94.

(3) المقال في المنهج ص 94.

(4) المقال في المنهج/ 106 ـ 107.

(5) ديكارت/ نجيب بلدي/ ص 26.

جسمه رأساً على عقب، فجرى في شيء من التعثر إلى مدرسته ليصلي في كنيستها، ولكنه تذكر عند دخوله إليها أنه لمح أثناء جريه في الطريق رجلاً كان يعرفه، فخرج فوراً من الكنيسة ليلحق به ويحييه، ولكن ريحاً أقوى من السابقة دفعت بجسمه إلى جدار الكنيسة، وعندئذٍ جاءه رجل آخر وطلب منه في أدب ولطف أن يقابل صديقاً يريد إهداءه شيئاً ثميناً؛ فظن ديكارت أن الهدية لم تكن إلاّ شمامة مستوردة من الخارج. وكان ديكارت، طول الحلم متعجباً من احتفاظ جميع الناس بتوازنهم؛ إلا هو، وتيقظ في النهاية أن هذه ألعوبة من روح خبيث؛ وعندئذٍ دار في سريره ورقد على جانبه الأيمن ورفع إلى الله صلاة قصيرة، ثم نام ففوجئ مباشرة بحلم ثان أعنف من الأول وإن كان أقصر منه؛ سمع قصف الرعد، وخيل إليه أن عينيه مفتوحتان وأنه يرى غرفته تلمع كلها بأشعة نور قوي، وتيقظ بعد ذلك وفكر في هذه الرؤيا واطمأن إليها شيئاً ما.

ثم نام من جديد فحلم لثالث مرة حلماً ارتاح له ارتياحاً كاملاً: رأى على منضدته كتابين أحدهما اغتبط له أشد الاغتباط والآخر مجموعة من مختارات الأشعار تصفحها مباشرة؛ فأعجب ببيت فيها إعجاباً قرر بعده أن يتخذ البيت شعاراً لحياته في المستقبل وهو بيت لشاعر لاتيني اسمه أوزونيوس يتساءل فيه (أي طريق في الحياة أتبع)[1].

لا نستطيع، أو لا يسمح لنا المجال بتأويل عام لتلك الأحلام، وقد ذهب في ذلك المؤرخون مذاهب شتى[2].

---

(1) هذه الأحلام الثلاثة مختصرة من كتاب ديكارت/ بابيه ج 1 ـ 81 ـ 86.

(2) حلم ديكارت/ جاك ماريتان/ ص 119.

ويكفينا تفسيراً لما سبق أن نعلم أن الحلمين الأولين يعبران عن قلق الفيلسوف وحيرته بين اتجاهات مختلفة، قد تتخذها حياته.

وقد سجل باييه مؤرخ ديكارت أن الفيلسوف اكتشف في تلك الليلة (أسس العلم العجيب)[1].

ولكن في نهاية المطاف ثمة أمر يمكن تأكيده:ـ

أن مخطوطات ديكارت في ذلك الوقت تدل على أنه كان بين موقفين عقليين: موقف هندسي ميكانيكي اتخذه بعده بيكمان وأدى به بعد سنين إلى تعميم المبدأ الآلي وإلى اتخاذ تفسير رياضي كامل في الطبيعة؛ ثم موقف آخر غير واضح تماماً أشار فيه إلى وحدة الطبيعة وإلى الحب والانسجام اللذين يقربان أجزاء الطبيعة فيما بينها، وقد نبذ ديكارت هذا الموقف الأخير حتى إننا لا نجد له أثراً في مخطوطاته بعد ذلك أو في مؤلفاته[2].

حياته العلمية:

تعتبر هذه الحقبة من أهم أحداث حياته في ذلك الوقت، وهي التي تمّت في خريف سنة 1627م. عند القاصد الرسولي بباريس، وحضره ديكارت حيث اجتمع كبار العلماء والمفكرين؛ واستمعوا إلى حديث رجل اسمه دي شاندو حيث تكلم عن أسس العلم الذي يجب في نظره أن يحل محل العلم المدرسي، (ولم يقنع الحاضرين بكلامه الذي جمع إلى الغموض ادعاءات غريبة؛ بعيدة عن العلم كل البعد، وهنا طلب الكردينال دي بيرول من ديكارت رأيه في الموضوع، فأجاب هذا في حذر عظيم بادئاً بتفنيد ادعاءات الرجل، ثم أشار

---

(1) ج 1 ص 81.

(2) مستفاد من كلام الكييه/ الاكتشاف الميتافيزيقي للإنسان عند ديكارت. ص 45 ـ 46.

في اقتضاب إلى مبادئ أخرى تكفل للعلم استقلاله وتقدمه وخصبه، وللدين جلاله وعظمته)[1].

الذي يتطلع على رد ديكارت مفصلاً[2] يجد أن ديكارت لم يصرح بأي اعترافات في هذا الموضوع، فالأغلب أنه لم يصرّح أثناء حديثه بأي نظرية ميتافيزيقية جديدة، إنما اكتفى بالكلام عن أمله في قيام علم طبيعي ميكانيكي عام، يستخدم الاستدلال الرياضي في جميع نواحيه[3].

ثم ننتقل إلى شطر آخر من حياة الفيلسوف العلمية حيث نجده ابتدأ حياته في هولندا في عام 1629م، في مدينة فرينكر وذلك بعد عدة تنقلات بين هولندا وفرنسا، حيث يسكن قصراً صغيراً بالقرب من أبواب المدينة حتى لا يكون بعيداً عن الريف، ثم انتسب إلى جامعتها حيث تابع فيها دروس علم الطبيعة وخاصة دروس علامة متخصص في المجاهر، ثم ترك فرينكر في نهاية هذا العام، واتجه إلى أمستردام حيث أقام بها إقامة شبه مستديمة إلى عام 1635م، مع تنقلات من منزل إلى آخر في المدينة، ورحلات تطول أو تقصر في بعض المدن الهولندية الأخرى، فنعرف مثلاً أنه انتسب في عام 1631م إلى جامعة ليدن، واتصل فيها بالرياضي والمستشرق جوليوس الذي عرض عليه بعض مسائل هندسية، لم يحلها الهندسيون القدماء، فاهتدى ديكارت أثناء حلها إلى اكتشاف مبادئ الهندسة التحليلية، وتعرّف ديكارت عن طريق جوليوس بقسطنطين هويجنز والد عالم الضوء الشهير كريستيان هويجنز، وكان

---

(1) ديكارت/ نجيب بلدي/ ص 37.

(2) رأيت عدم الإتيان به لطوله وكثرة تشعبه ولكن لخصته وأخذت المهم منه.

(3) يراجع بهذا الصدد/ حياة ديكارت/ باييه/ ج 1، 160 ـ 166.
وربما لم يتكلم ديكارت بحريّة لأنه كان يخاف من الكنيسة.

الأب يشغل في ذلك الوقت منصباً هاماً في البلاط الهولندي كما كان علاوة على ذلك علامة في الطبيعة والرياضية مغرماً بالفن والأدب والموسيقى[1].

مراحل التأليف عند ديكارت:

إذا نظرنا إلى تاريخ التأليف الديكارتي لاحظنا أولاً أنه ينقسم انقساماً طبيعياً إلى مراحل ثلاث أو أربع متباينة زمناً وموضوعاً؛ ولاحظنا ثانياً أن التمييز الزمني بين المراحل المذكورة مرتبط بأحداث هامة في حياة ديكارت الفكرية وغير الفكرية؛ ثم لاحظنا أمراً ثالثاً غاية في الأهمية وهو اختلاف في الأسلوب واختلاف في لغة التعبير؛ لاتينية كانت أو فرنسية.

لنلخص تأليف ديكارت في ضوء هذه الملاحظات الثلاث:ـ

هناك مرحلة افتتاحية أو تمهيدية لا يلزم اعتبارها مرحلة تأليف بالمعنى الضيق؛ لأن ديكارت لم يقصد أثناءها نشر أي كتاب، وهي تلك التي عاصرت أحلامه ومشروعاته الأولى في عامي 1618م و1619م.

وتلت تلك المرحلة الافتتاحية مراحل رئيسة:ـ

الأولى: وهي مرحلة المنهج والعلوم: لم تبدأ فعلاً إلا بعد اجتماعات ديكارت بالكردينال دربيرول في عام 1627م. وعزمه من ذلك الوقت على التقدم في مشروعاته العلمية من ناحية، وإنشاء فلسفة تتفق والدين وتؤسس العلم من ناحية أخرى، وأول مؤلفات هذه المرحلة كتاب (القواعد لتوجيه العقل) وهو كتاب ديكارت الرئيس في المنهج ألفه في عام 1628م ولم ينته منه ولم ينشره[2]، وآخر مؤلفات هذه الفترة (المقال عن المنهج) مع الكتب العلمية

---

(1) ينظر التأملات = ديكارت/ ترجمة كمال يوسف الحاج/ المقدمة، ص 20.

(2) انظر المؤلفات الكاملة لديكارت/ طبعة أدام وتانري.

الثلاثة (في انكسار الضوء) و(الآثار العلوية) و(الهندسة) كتبت كلها بالفرنسية ونشرت في عام 1637م وجميعها في المنهج والعلوم.

والمرحلة الثانية التي تلت مباشرة نشر (المقال عن المنهج) هي مرحلة التأليف الفلسفي البحت، تفرّع خلالها ديكارت لمعالجة الموضوعات الفلسفية المختلفة، وذلك أولاً في محاولته الرد على أسئلة قراء (المقال عن المنهج) وخاصة قراء الصفحات الفلسفية في المقال، وقد تقدم ديكارت في بحثه كلما تقدم به الزمن ومهما اشتدت عليه وطأة الأحداث وخصوصاً بعد مهاجمة الخصوم لنظرياته، وبعد وفاة أعز الناس لديه بنته أولاً ثم أبيه بعد ذلك بمدة قصيرة، (وقد عالج في هذه الفترة مسائل اليقين، والوجود في طبيعته وأصله ومصيره)[1].

وامتازت **المرحلة الثالثة والأخيرة** من تأليف ديكارت وهي مرحلة الفلسفة الأخلاقية برسائل ديكارت بين عام 1643 و1649م. إلى الأميرة أليصابات في مشكلة اتحاد النفس بالبدن، وفي مشكلة الانفعال وضبط النفس، ثم في الحيز الأسمى والسعادة، ونشر ديكارت في عام 1644م. كتاب (مبادئ الفلسفة) باللغة اللاتينية في أجزاء أربعة:

الأول في مبادئ المعرفة، والثاني في مبادئ الأشياء المادية، والثالث في العالم المنظور، والرابع في الأرض، وفي كل منهم عبّر عن آرائه الفلسفية والعلمية كما نجد ذلك في (التأملات) وننهي هذه الفقرة بكلام لأحد تلاميذ ديكارت حيث يقول (وجميع خطابات ديكارت باللغة الفرنسية ـ أي في آخر مراحل التأليف ـ وأسلوب هذه الخطابات رائع حقاً، صورة لتفكير ديكارت،

(1) المؤلفات الكاملة لديكارت/ ج 11 ـ 209.

وشخصيته وعلاقاته مع الغير، وسواء لما احتوته تلك الخطابات من نفحات إلهام أو نكات طريفة، فهي أصدق تعبير عن القوة التي رأيناها فيها طابع ديكارت الرئيسي)[1].

مؤلفاته:

معلوم أن ديكارت قد أثرى الحياة الفلسفية في ما يسمونه عصر أوروبا الحديث فقد ألف كتباً أهمها هي:

1 ـ قواعد لهداية العقل؛ وصدر في عام 1628م، وهي رسالة في المنطق الجديد المعارض لمنطق (أرسطو).

2 ـ الخواطر الخاصة؛ صدر في 1669م. Cogitation Private، وهي خواطر شخصية وتأملات خاصة بالفيلسوف؛ دونت في صورة مذكرات في كراسة باسم (الأفكار الخاصة)، كان ينشد من خلال سطورها؛ وضع أصول علم جديد وعجيب.

3 ـ ملخص الموسيقى Musica Compenduim، وهو مخطوط لم ير النور بعد، اهتم فيه بدراسة فن الموسيقى وصلته بالإنسان.

4 ـ الأولمبيات 1619م Olympica، وهي كراسة صغيرة على غرار المذكرات التي كتبها؛ وهذه المؤلفات كتبها في مطلع حياته العلمية[2].

5 ـ رسالة في العالم والضوء Lemond وهي الرسالة التي أهداها إلى العالم، وقد انتهى منها عام 1629م، وكان على وشك نشرها غير أنه امتنع عن ذلك خشية بطش الكنيسة، إذ كان قد أثبت فيها عن طريق البراهين العلمية

---

(1) خطابات في الأخلاق عند ديكارت/ جاك شفالييه/ طبعة سنة 1937م. ص 21

(2) ديكارت والفلسفة العقلية/ د. راوية عبد المنعم عباس/ ص 63.

دوران الأرض حول الشمس؛ وكانت هذه النقطة (وهي دوران الأرض حول الشمس محور البحث في جميع أجزاء الرسالة).

6 ـ بعد ذلك نشر ديكارت كتابه في الطبيعة؛ وبحث فيه انتقال الأشعة الضوئية في الأوساط المختلفة، وهي المعروفة بنظرية (انكسار الضوء) Deoptriques، ثم قام بكتابة مقالين أحدهما عن الظواهر الجوية (الآثار العلوية) Meteores حيث عرض فيه لنظريته عن موضوع (الشموس الخدّاعة) والآخر عن قوس قزح. أما المقال الثاني فكان يبحث في الهندسة Ceometrie ثم نشر المقالين مضيفاً إليهما افتتاحية بعنوان (مقال في المنهج) Discours de la methode (يبين فيه كيف يمكن للإنسان أن يستخدم عقله، بحثاً عن الحقيقة في العلوم مضيفاً إلى ذلك علوم الانكسار والظواهر الجوية والهندسية؛ التي تمثل محاولات لتطبيق هذا المنهج، وقد ظهر هذا الكتاب في عام 1937م، ومما يذكر عن المؤلف أن ديكارت قد استخدمه في محاولة لمعرفة اتجاه الرأي العام، فلاقى نجاحاً منقطع النظير ويرجع ذلك إلى سببين: أولهما: ظهوره بدون اسم مؤلفه، وثانيهما: كتابته بلغة فرنسية، وطرحه لموضوعات ومسائل يستحيل علاجها إلا من خلال كتابتها باللغة اللاتينية)[1].

7 ـ (التأملات في الفلسفة الأولى) Meditations Metaphysique وقد نشرها عام 1641م، وهي تمثل أروع ما كتب ديكارت في الميتافيزيقا وفي النفس الإنسانية؛ وفي الأدلة على وجود الله وكان الهدف من تأليفها هو التوسع في الفلسفة، التي أبرز معالمها الرئيسة، ولذلك فقد كتبها باللغة اللاتينية مهدياً

---

(1) المرجع السابق/ ص 65.

إياهـا إلى عمـداء كليـة اللاهـوت المقدسـة؛ وأسـاتذتها بباريس، ورأى الفيلسوف أن يعرضها على فلاسفة عصره، قبل أن يقوم بطبعها من أمثال (جاسندي) Gassendi و(أرنو) Arnould و(هوبز) Hobbes لإبداء آرائهم فيها، ثم يقوم هوبز بالرد على اعتراضاتهم في مخطوطته وهي الاعتراضات التي نشرها مع ردوده عليها، لذلك فقد ظهرت التأملات متضمنة لبراهين وجود الله وخلود النفس الإنسانية في عام 1641م.

وقد ظهرت في باريس في عام 1947م. ترجمتان للكتاب، أحدهما الترجمة الفرنسية التي قام بها الدوق لونيس Luynes والأخرى هي ترجمة (كلير سلييه) Clerselie، صديق الفيلسوف للاعتراضات والردود؛ وقام الفيلسوف بمراجعتها وذلك في عام 1647م.

ويحتوي التأملات على ستة تأملات يعرض في الأول منها: للبحث عن الأشياء التي يمكن أن توضع موضع الشك، أما الثاني فيبحث فيه عن طبيعة النفس الإنسانية مبرهناً على أن معرفتها أيسر من معرفة الجسد؛ وفي التأمل الرابع يعرض الفيلسوف لمشكلة وجود الله وصفاته، وفي الخامس: يتأمل في جوهر الأشياء المادية، وفي التمايز الحقيقي بين النفس والجسد الإنساني، ويذكر ديكارت في رسالة إلى الأب مرسين P. Mersenne، أن التأملات تتضمن الأسس التي يقوم عليها علم الطبيعة، ولكنه طلب منه ألا يصرح بمثل هذا الرأي حتى لا يثار في وجهه الصعوبات من قبل المدرسين.

فلسفة ديكارت:

لابد لي كباحث قبل أن أغوص غمار فلسفة ديكارت أن نعرفها قبل كل شيء، («إن كلمة الفلسفة تعني دراسة الحكمة ولسنا نقصد بالحكمة مجرد الفطنة

في الأعمال؛ بل معرفة كاملة بكل ما في وسع الإنسان معرفته. بالإضافة إلى تدبير حياته وصيانة صحته واستشكاف الفنون» «ولكي تكون هذه المعرفة كما وصفنا؛ فمن الضروري أن تكون مستنبطة من العلل الأولى وهذه الفلسفة»«قسمها الأولي الميتافيزيقيا وهي تشمل على مبادئ المعرفة التي منها تفسير أهم صفات الله وروحانية نفوسنا وجميع المعاني الواضحة المتميزة الموجودة فينا، والقسم الثاني من الفلسفة العلم الطبيعي وفيه بعد أن نكون وجدنا المبادئ الحقة للماديات؛ نفحص عن تركيب العالم على العموم ثم على الخصوص عن طبيعة هذه الأرض؛ وجميع الأجسام وبالأخص عن طبيعة الإنسان»)[1].

من المعلوم لدى أي باحث أن دراسة الفلسفة الديكارتية تبدأ من الشك إلى اليقين، ومن النفس إلى الله، وعلى هذا نجد كلاماً واضحاً جلياً عن فلسفة ديكارت ونظرته العامة للأشياء للشيخ كامل عويضة؛ وقد لخصته وعقبت عليه في بعض الأمور.

أول هذه الأشياء التي اعتنى بها ديكارت في فلسفته:

1 ـ **وجود النفس**: بعد أن شك ديكارت في كل شيء، وجد حقيقة لا تقبل الشك، حقيقة يدركها بالحدس، وهي أنه في شكه مدرك لوجوده، ووجوده متضمن في فكره، لذلك قال ديكارت (أنا أفكر إذن أنا موجود)، ولكن هذا الوجود الذي أدركه ديكارت ليس وجود الجسم، وإنما هو وجود النفس المفكرة، فقوله (أنا أفكر) معناه أنه موجود يتعقل ويشك، ويثبت وينفي، ويريد ويحس ويتخيل، فكل هذه الظواهر النفسية تفيد وجود النفس[2].

---

(1) تاريخ الفلسفة الحديثة/ يوسف كرم/ ص 62 و63.

(2) ينظر ديكارت رائد الفلسفة في العصر الحديث/ كامل عويضة/ ص 59 ـ 60.

وقد اتخذ ديكارت هذه الحقيقة أساساً أقام عليه فلسفته بأسرها، وقال ديكارت: إن كل قضية تبلغ من الوضوح والتحديد ما بلغته قضية (أنا أفكر، أنا موجود) لا يجوز أن نشك في صدقها ويقينها.

2 ـ وجود الله: لم يحاول ديكارت أن يبرهن على وجود الله عن طريق العالم بل زعم أن معرفة الله هي التي توصلنا إلى إدراك العالم الطبيعي، فهو لم يحاول أن يستخدم الأرض للصعود إلى السماء، بل استخدم السماء للنزول إلى الأرض وهو لم يستشهد بالكون على وجود خالقه، بل استشهد بالخالق على وجود المخلوق.

براهين ديكارت على وجود الله:

البرهان الأول: قال ديكارت: إني كائن ناقص، ذلك لأني أشك، والشك مظهر من مظاهر النقص، وما كان لي أن أعرف أني ناقص، إلا إذا كانت لدي فكرة عن الكمال المطلق، ولا يعقل أن تكون فكرتي عن الكمال المطلق قد تكونت في عقلي نتيجة تكبير لأنواع الكمالات الناقصة، لأن الكمال الناقص مهما اتسع فهو محدود، وإذن فهذه الفكرة لم يضعها في نفسي إلا موجود كامل لا متناهي؛ هذا الموجود اللامتناهي هو الله.

البرهان الثاني: وإذا كنت موجوداً ناقصاً، وفي ذهني فكرة عن الموجود الكامل فما هي علة وجودي إذن؟

لا أستطيع أن أتصور أنني خلقت نفسي بنفسي، وإلا لوهبتها كل صنوف الكمال، وبرأتها من كل نقص، ولم يخلقني كذلك إله ناقص، وإلا لكان الأجدر به أن يمنح نفسه الكمال، وإذن فخالقي كامل وهو علة وجودي.

البرهان الثالث: إذا كان الله هو الكائن الكامل، وكان الوجود كمالاً فالله إذن موجود، فديكارت يرى أن ماهية أو فكرة الكائن الكامل يستلزم بالضرورة الوجود الخارجي[1].

الذي يراه الباحث أن البرهنة على وجود الله عند ديكارت غاية ووسيلة في آن واحد؛ غايةً لأن العقيدة الصحيحة لا تتحقق بدونها، ووسيلة لأنه ليس ثمة يقين إلا ما بني على وجود الله.

ـ **صفات الله**: الله هو المبدأ الأول، وهو الموجود بذاته، وليس لذاته علة إلا ماهيته؛ والله هو الكائن اللامتناهي؛ الواحد؛ الأزلي؛ الأبدي؛ مبدع الأشياء وخالقها، وأهم صفة عند الله في نظر ديكارت الصدق، ومن ثم يمتنع على الله أن يكذب؛ أو يضلل؛ وليس مصدر الخطأ الذي يقع فيه العقل؛ إلا أنه يفكر في ميادين يعوزها الوضوح والجلاء ولو فكر العقل في ميدان واضح لانتهى إلى الحقيقة ووصل إلى اليقين.

ـ **وجود العالم**: وجود الله هو الذي يضمن لنا وجود العالم الخارجي، وهذه الأشياء الخارجية لم تصل إلينا إلا عن طريق الحواس، والله هو الذي منحنا هذه الحواس، والله صادق لا يخدع؛ وإذن فالعالم الخارجي موجود حقيقة.

ـ **العالم بين أرسطو وديكارت**: هذه الأشياء المادية جميعاً، مهما اختلفت عناصرها، وتعددت أشكالها تتصف بصفة واحدة مشتركة بينها هي الامتداد، فهي جميعاً، تشغل حيزاً من المكان، وديكارت في هذا يخالف أرسطو، الذي يرى أن كل جسم طبيعي يتألف من صورة تحدد طبيعته وخصائصه، وهيولى تقبل وتحمل هذه الصورة وتكون محلاً لكل تغيّر.

---

(1) ينظر التأملات/ ديكارت/ التأمل الثالث.

أما ديكارت فيرى أن كل جسم طبيعي أياً كانت صفاته وشكله وحجمه يشغل حيزاً من المكان، وإذن فطبيعته الامتداد؛ والامتداد هو الفكرة الواضحة الجلية التي يستطيع العقل أن يدركها من المادة. وعلى العكس المادة ـ العقل ـ وأهم صفاته الفكر، وهو لا يشغل حيزاً في المكان ولا يتصف بالامتداد، وإنما هو فكر محض، فالمعقول والنفوس والله، كل هذه أفكار.

ـ **الإنسان**: ليس الإنسان جسماً فحسب، ولكنه جسم ونفس؛ جسم أهم صفاته الامتداد، ونفس أهم صفاتها الفكر، هذان عنصران متناقضان فكيف أمكن أن يجتمعا معاً في الإنسان؟ القوة المفكرة (العقل) لا تتدخل في عمل الجسم، والجسم لا يستطيع أن يتدخل في الإدراك الذهني، فكيف أمكن أن يرتبط الواحد بالآخر؟

لا يستطيع ديكارت وقد شطر الوجود إلى شطرين لا تجد الوحدة إليهما سبيلاً لا يستطيع هذا الثنائي المتطرف أن يوجد حلاً لهذه المشكلة إلا أن يرجع إلى الله.

فالله هو الذي جعل النفس تتحد بالبدن، وهو الذي أوجد هذا النظام ليحيا الإنسان، ولذلك فالنفس تؤثر في البدن بواسطة الإرادة، والبدن يؤثر في النفس بواسطة الإحساس، وسبيل هذا التأثير الغدة الصنوبرية التي توجد في مؤخر المخ، والتي تتلقى الإرادة وتبلغها إلى أجزاء الجسم، ولكن كيف تربط هذه الغدة الصنوبرية بين النفس والبدن، هذان الطرفان المتناقضان كيف يتحدان؟ هذه هي المشكلة التي لم يستطع ديكارت أن يوجد لها حلاً، ذلك لأن ديكارت وقد فرق بين النفس والجسم، وشطر الكون إلى قسمين: فكر وامتداد، عجز عن أن يربط بينهما، ولذلك جاء تلميذه اسبينوزا وجمع هذين

العنصرين المتناقضين في حقبة واحدة ذات مظهرين: فالامتداد فكرة مرئي، والفكر امتداد خفي[1].

نستطيع أن نحلل الكلام الآنف ونناقشه:

1 ـ اتخذ ديكارت الوضوح أساس اليقين، مع أن الوضوح أمر نسبي يختلف من إنسان إلى إنسان.

2 ـ كانت قسمته ثنائية ولم يستطع أن يربط بين المادة والفكر، بين الجسم والنفس إلا بالرجوع إلى الله، فحكمة الله هي التي شاءت أن تربط بين النفس والجسم.

3 ـ يلاحظ أن ديكارت بدأ من نقطة هي نفسها التي انتهى إليها، وهذا دور برأي، وذلك لأن ديكارت أثبت وجوداً مستنداً إلى الأفكار الواضحة؛ ثم أكد بعد ذلك أن هذه الأفكار الواضحة صادقة لأن الله قد ضمن صدقها، وهذا هو الضمان الإلهي.

4 ـ استطاع في آخر المطاف ـ والحمدلله ـ أن يعيد اليقين إلى النفوس، بعد أن زعزعها شك الشكاك في مبدأ العصر الحديث.

ضرورة المنهج عند ديكارت:

هناك أمور هامة تجلي لنا ضرورة المنهج ومدى أهميته عند ديكارت:

1 ـ تميّز القرن السابع عشر ميلادي بميزة هامة: وهي عناية المفكرين فيه؛ بمسألة المنهج الواجب اتباعه في البحوث العقلية، والواقع أن الكتب على المنهج في ذلك العصر كثيرة، وخصوصاً ابتداءً من سنة 1620م ففي ذلك التاريخ ظهر كتاب (الإرغانون الجديد) لفرنسيس بيكون؛ وبعد ذلك بنحو

(1) التأملات/ التأمل الرابع/ الترجمة العربية.

سبع عشرة سنة نشر ديكارت (المقال في المنهج) وفي ذلك العصر أيضاً نشر سبينوزا رسالته في إصلاح الذهن، كما أصدر تشرنهاوس كتاب (طب العقل)، ونشر فلاسفة (يورويال) منطقهم المشهور المسمى (فن التفكير) ونشر (مالبرانش) كتاب (البحث عن الحقيقة) وكتب ليبنتز مصنفاً من عدة رسائل نجد في عنوان بعضها لفظ المنهج، فالعناية بالمنهج إذن ميزة من ميزات القرن السابع عشر[1]، والذي يجده الباحث أن جل مفكري ذلك العصر؛ كانوا مؤمنين بفائدة المنهج، وأثره في العلوم وفي الحياة، ولقد بيّن لنا هاملان سبب ذلك؛ إذ قال (إن أهل ذلك العصر كانوا قد ألقوا عن كواهلهم عبء الخضوع للسلطات في الفلسفة، بل أحياناً في الفكر على العموم، وفي المعتقد أيّاً كان ـ كما هو الحال عند سبينوزا ـ فكان لا بد لهم من شيء يطمئنون إليه، والمنهج هو الكفيل الذي لا غناء لفكرهم عنه، لذلك اهتموا قبل كل شيء بتحصيل منهج يهتدون به)[2].

2 ـ وكذلك رأى ديكارت أن البحث في المنهج هو أهم المشكلات وأولاها بالعناية في مهمة الفيلسوف، وأراد أن يجعل بداية إصلاحه الفكري؛ الظفر بطريقة قويمة للحصول على المعرفة الحقيقية؛ بواسطة ذلك النور الفطري المبثوث فينا جميعاً وهو نور العقل.

لم يرض ديكارت عن منهج (المدرسيين) الذي كان لم يزل قائماً في عصره، وكان قد تلقنه أيام طلبه العلم في مدرسة (لافليش)، وكان ذلك المنهج المدرسي؛ عبارة عن محاولة حل المشاكل الفلسفية أو العلمية؛ بذكر طائفة من

---

(1) ملخص من كتاب ديكارت/ عثمان أمين/ ص 105 ـ 106.

(2) مذهب ديكارت/ هاملان/ ط 2/ ص 33، الترجمة العربية.

أقوال المؤلفين السابقين، سواءً كانوا معروفين أو غير معروفين، بدلاً من الإقدام على معالجة المشاكل نفسها، ولا شك أن مثل ذلك المنهج كان يتطلب اطلاعاً كثيراً، وقسطاً كبيراً من الحذق والمهارة للملاءمة بين الآراء المتباينة والمصادر المشتتة، ولكن مثل ذلك المنهج أيضاً ليس من شأنه أن يستحث الناس على حرية الفكر والاستدلال في البحث.

ولاحظ الفيلسوف بادئ الأمر ما كان سائداً في زمانه من اختلاف في النظر وفوضى في الآراء في الفلسفة، أو في العلوم حتى قال (لا نكاد نجد شيئاً هو من البداهة واليقين؛ بحيث لا يدع مجالاً للمناقشة والجدال)[1]. هذا الأمر هو الذي جعل ديكارت يضع منهجاً واضحاً ـ برأيه ـ يستنير به على طريق فلسفته ثم يعرج ويبرهن على أن أكثر فوضى الفلاسفة واضطراب العلماء مصدره أنهم جميعاً يسيرون في مباحثهم على غير هدى، ويتخبطون فيها خبط العميان، وكان أكبر اعتمادهم في بلوغ مراميهم على مواتاة الصدف والحظوظ، دون أن يكون لهم في ذلك خطة مرسومة أو منهجاً معيناً، ولذلك يقول ديكارت (الناس مسوقون برغبة في الاستطلاع عمياء، حتى أنهم يوجهون أذهانهم غالب الأمر في طرق مجهولة، لا تحقيقاً لأمل صائب، بل لكي يجربوا إذا كان ما يبحثون عنه شيئاً حقاً؛ مثلهم في ذلك مثل رجل استولت عليه رغبة جنونية في أن يكتشف كنزاً ما: فتراه لذلك يقضي وقته منقباً في كل مكان، ليرى لعل أحد السائحين أو العابرين قد ترك كنزاً)[2] إذن هنا أراد ديكارت أن يبين لزوم الشعور بضرورة المنهج.

---

(1) المقال في المنهج/ ديكارت/ ص 19.

(2) القواعد لهداية العقل/ ديكارت/ القاعدة الرابعة.

مما سبق يتبين لزوم المنهج بالفعل، ومن ثمّ تطبيقه على النظر والعمل، عن شعور ووعي ورؤية، ولذلك يقول ديكارت (أنا أعنى بالمنهج؛ قواعد بسيطة إذا راعاها الإنسان مراعاة دقيقة؛ كان في مأمن من أن يحسب صواباً ما هو خطأ، واستطاع دون أن يستنفذ قواه في جهود ضائعة، بل بالعكس مع ازدياد علمه زيادة مطردة؛ أن يصل بذهنه إلى اليقين جميع ما يستطيع معرفته)[1].

3 ـ أراد ديكارت أن ينبهنا أن قصد الفيلسوف ليس هو تعلم الرياضة لذاتها، أو لايجاد خصائص (أعداد عقيمة وأشكال وهمية)، بل لتعويد الذهن على مناهج وطرائق، يصح بل ينبغي أن تتسع وتمتد إلى أشياء أكبر أهمية، وأكثر قيمة، فالرياضيات عند ديكارت هي ثمرة المنهج، وليست هي المنهج نفسه والناس جميعاً يعلمون أن المعرفة التي تقنع الفكر وتشفي غليله؛ إنما هي المعرفة الرياضية ذلك هو (المنهج الشامل) وهو ممكن التحقيق، ولذلك يقول ديكارت (ليست العلوم جميعاً إلاّ العقل البشري الذي يبقى هو هو بعينه، مهما تتنوع الموضوعات التي يبحثها، دون أن يغير ذلك الاختلاف من طبيعته؛ أكثر مما يغيّر اختلاف الأشياء من طبيعة الشمس؛ التي تلقى على الأشياء نورها)[2].

الشك المنهجي عند ديكارت:

من خلال دراستي المتفحصة لمنهج الشك عند الإمام الغزالي الموجود في كتابه المنقذ من الضلال[3] ومنهج الشك عند ديكارت، وجدت أنه ليس هناك

---

(1) المصدر السابق/ ص 371 ـ 372.

(2) قواعد لهداية العقل/ ديكارت/ القاعدة الأولى.

(3) ص 75 وما بعدها، تحقيق د. عبد الحليم محمود.

كثير اختلاف بينهما لا في الوسائل ولا في التفكير، ولكن نجد أن النتائج قد بعدت بعضها عن بعض حيث نجد أن ديكارت قد اشتط جداً عن المنهج الصحيح؛ والحقيقي؛ ولذلك سأعرض فيما بعد الشك المنهجي بين الغزالي وديكارت والمعتزلة.

أما الآن فنريد أن نعرض مفهوم الشك عند ديكارت:ـ

استبعد ديكارت شهادة الحواس: لأنها تخدعنا أحياناً ومن الفطنة أن لا نأمن أمناً تاماً لمن خدعنا مرة ثم أقرّ ـ كالغزالي رحمه الله ـ بأننا نعتقد في النوم أموراً ونتخيل أحوالاً ونحسب لها ثباتاً واستقراراً ثم نستيقظ فنعلم أن ما رأيناه أثناء النوم كان حلماً، وإذن فما المانع من أن تكون تصوراتنا في اليقظة كتصوراتنا في النوم كلها خيالات لا حاصل لها؟ وإذن فقد اتضح له أنه ليس هناك إمارات يقينية يمكن أن نميز بها اليقظة من النوم بوضوح وجلاء[1].

ثم استبعد أيضاً شهادة العقل نفسه: لأن بعض الناس قد يخطئون في الاستدلال ولو في أبسط القضايا الهندسية، وزاد على ما تقدم فافترض فرضاً لم يسبق إليه فقال ما معناه: ربما كان هناك (شيطان ماكر) مخادع يعبث بعقلي، فيريني الباطل حقاً والحق باطلاً، ويجعلني بحيث أخطئ على الرغم مما قد يكون لدي من يقين نفسي[2].

2 ـ يدعي ديكارت أن شيئاً واحداً يلبث قائماً وفيه منجاة من الشك وهو الفكر، أنا أفكر، وأنا واثق أنني أفكر، وحتى لو شككت في أنني أفكر، فمثل هذا الشك يقتضي أن أفكر أيضاً، وبعبارة أخرى (إذا صممت على أن أشك في

(1) ينظر التأملات/ ديكارت/ التأمل الأول.

(2) ينظر التأملات/ ديكارت/ التأمل الأول.

كل شيء، فأخليت ذهني من كل معتقد؛ وتوقفت عن كل حكم بقي أمامي مع ذلك أمر مؤكد: وهو أنني مهما أشك ومهما أفكر، فلست بمستطيع أن أنكر حين أشك وإنني في لحظة تفكير، بل في لحظة خطئي في تفكيري، لابد أن أكون موجوداً، أنا أفكر وإذن فأنا موجود)[1].

مقارنة بين شك ديكارت والغزالي والمعتزلة:

لابد لي كباحث أن أستخلص النتيجة وأن أبين مدى تأثير الشك المنهجي في فلسفة ديكارت، وهل هناك من أثر في فلسفته، وأهم شيء هو ما الذي وصل به ديكارت من خلال شكه المنهجي، مما سبق يتضح لنا أنه لابد أن نعقد مطلباً للمقارنة بين ديكارت وغيره؛ حتى يتبين لنا إلى ماذا وصل ديكارت، وكما يقولون (وبالضد تتضح الأشياء)، حيث يقول أحد من قارن بين ديكارت وغيره (اتفق الغزالي مع المعتزلة في ضرورة الشك؛ بمعنى نبذ التقليد والاتباع، وضرورة البحث العقلي لإقرار العقيدة الصحيحة، كما اتفق معهم أيضاً في أن اليقين هو اتباع طريق التصوف، بينما اشترط المعتزلة الاحتكام إلى العقل لبلوغ اليقين، أما ديكارت فقد بدأ بداية شبيهة ببداية الغزالي، حتى شك في شهادة الحواس والعقل، فأعلن عجزنا عن التمييز بين اليقظة والحلم[2]، لكنه انتهى من شكه نهاية معتزلية؛ أي نهاية عقلانية وليست صوفية، وفي ذلك اختلاف ديكارت عن الغزالي، وهو أمر لم يحدث للمعتزلة أو للغزالي؛ وحين وصل ديكارت إلى اليقين صاغ قواعد المنهج المؤدي في رأيه إلى اليقين في شتى العلوم؛ ولا نجد شبيهاً لذلك عند الإسلاميين).

---

(1) التأملات/ ديكارت/ بداية التأمل الثاني.

(2) هذا تماماً ما نراه عند الإمام الغزالي؛ وهو موجود في المنقذ من الضلال بتحقيق د. عبد الحليم محمود ص 106 وما بعدها، وكأن ديكارت أخذ هذه الفكرة من الإمام الغزالي والله أعلم.

مما سبق يظهر لنا جلياً أن الإمام الغزالي وصل إلى نتيجة غير التي وصل إليها ديكارت، حيث وصل الإمام الغزالي إلى أن العقل عاجز تماماً على أن يصل إلى اليقين بذاته؛ وإن الحدس هو أساس اعتماد الإمام الغزالي، حيث عبر عنها فيما سبق بـ (نهاية صوفية)، أما ديكارت فكانت نهايته عقلية بحتة، واعتمد على العقل اعتماداً كاملاً، واستنتج قاعدته المشهورة التي هي برأيه أساس اليقين ألا وهي (أنا أفكر، إذن أنا موجود). هذه تقريباً مقارنة بسيطة بين الإمام الغزالي وديكارت ولم نتطرق إلى المعتزلة لأنها ليست محل بحثنا.

دراسة نقدية لبعض جوانب فلسفة ديكارت:

يحسن بنا في بداية هذا الكلام أن نتعرض لبيان موقف ديكارت، من الدور في حد ذاته، قبل أن يُتهم بالوقوع فيه؛ من قبل غيره من الفلاسفة، ولأجل هذا الأمر سنرجع إلى نصوصه لننظر؛ وعساها أن تخبرنا بما نريد ولنا منها نص في مقالة الطريقة ينفي فيه أن يكون (وقع في الخطأ الذي يسميه المناطقة دوراً)، وهو يتحدث عن الحجج التي تتعاقب (تعاقباً يبرهن فيه على الآواخر بالأوائل التي هي عللها، وعلى الأوائل بالأواخر التي هي معلولاتها؛ لأن التجربة ما دامت تجعل هذه المعلولات يقينية جداً؛ فإن العلل التي استنتجت منها هذه المعلولات؛ لا تصلح لإثبات وجودها بقدر ما تصلح لتفسيرها، بل الأمر على عكس ذلك، أي أن العلل تثبتها المعلولات)[1].

ولنا أيضاً نص آخر في التأملات يقول فيه: (إننا لا نستطيع أن نعرض على الكافرين أنه ينبغي أن نعتقد بوجود الله؛ لأن هذا هو ما جاءت به الكتب السماوية المقدسة، وأنه ينبغي من جهة أخرى أن نؤمن بالكتب المقدسة لأنها

(1) مقالة الطريقة/ ديكارت/ ص 218.

جاءت من عند الله؛ لأنهم قد يرون أن الاستدلال على هذا النحو؛ وقوع في الغلط الذي يسميه المناطقة دوراً)[1].

فهذان النصان يبينان لنا أن ديكارت لا يعتبر الدور برهاناً، وأنه ينفي أن يكون قد وقع فيه، ويريد أن لا يتهم بالوقوع فيه.

وهنا نبحث فنجد أن كاتباً معاصراً قد بيّن وجهة نظر ديكارت بالنسبة للدور وقال ما نصه (إنها فلسفة أقامها صاحبها بعناية كبيرة ليناصر الدين ضد الملاحدة بالحجج الدامغة، ويؤسس العلم على أصول ثابتة ضد الفلاسفة المدرسين؛ ولكن ذلك لم يفده شيئاً، وإنما جعل منه هدفاً لهؤلاء وأولئك؛ لأنهم كانوا يرون فيما بين أيديهم من علم وفلسفة الحقيقة التي لا جدال فيها، فمعارضوه كثيرون وأصحاب مشارب مختلفة، ولقد عارضوه في كل جزء من أجزاء فلسفته وفي عدة من قضاياها بحماسة كبيرة؛ تكشف لنا عما أثارته من اهتمام بين علماء عصره، ومن جملة ما عارضوه به الوقوع في الدور، وهي معارضة خطيرة تهدم فلسفته من أصلها إذا ثبت فيها ما تدعيه)[2].

يعالج د. عثمان أمين هذه المشكلة فيرسم صورتها، ويذكر الاعتراضات على ديكارت فيما يتعلق بها، وأجوبته عنها، ويبين الإشكالات التي تلزم هذه الأجوبة ويحاول رفعها أو الحد منها، ثم يخلص إلى إبداء رأيه فيها فيقول: (إن الوضوح والتميز مع أنهما آية اليقين، محتاجان إلى سند من الصدق الإلهي، والحقائق الرياضية نفسها ليس في وضوحها وتميّزها ضمان (كافٍ) ولن يكون لها قيمة إلاّ إذا كان الله صادقاً غير مخادع، وظاهر أن في تلك العملية ضرباً من

---

(1) التأملات/ ديكارت/ ترجمة عثمان أمين/ ص 40.

(2) مشكلة الدور الديكارتي/ الربيع ميمون/ ص 85 ـ 86.

الدور، ولكن كل معرفة حقيقية لا تخلو من بعض الوجوه من دور، ويشبه أن يكون الدور موجوداً في الطبيعة؛ وفي الأشياء نفسها، ألسنا نرى أن العصفور قبل أن يجرب جناحيه يقذف بنفسه خارج العش؟ وكل كائن حي يقوم بشيء من المصادرة على المطلوب؛ حين يستخدم أعضاء جسمه بلا تردد، وإن كان يجهل بعد إذا كانت تلك الأعضاء قد جعلت لبقائه أو هلاكه..

ثم يسترسل في الكلام ويقول: فالمعرفة الواضحة المتميزة يقينية ولكنها لا تستغني عن ضمان الله الصادق الثابت؛ لأن الإله الماكر الذي فرضه ديكارت يسطو على الحقائق كلها، ويمكنه أن يوقعنا في الخطأ كلّما قمنا بعمل فكري، ولذلك فلا بد لنا من نقض فرضه لنطمئن إلى معرفتنا ويكون ذلك بإثبات وجود الله الصادق؛ ولكننا إذا أثبتناه وقعنا في ضرب من الدور، وهو على كل حال لا ينقص من قيمة التفكير الديكارتي، لأن المبالغة في الاحتراس هي التي توقعنا فيه)[1].

إن عثمان أمين فيما أرى يظهر لنا تردداً نوعاً ما؛ في هذه المسألة، فهو يثبت ضرباً من الدور وقع فيه ديكارت عندما طلب ضمان الصدق الإلهي للحقيقة حتى يخلصها من براثن الإله الماكر المفروض، ولكنه لا يقف عند هذا الحد لأنه يجعل الدور من بعد ذلك شيئاً لا تخلو كل معرفة منه من بعض الوجوه!!

علاقة ديكارت بالغزالي:

لا زالت مستمرة الدراسات التي تعقد للمقارنة بين الغزالي وديكارت، منذ كتب زكي مبارك يقارن بينهما حتى اليوم، إلاّ أن الدراسة الأساسية التي كتبها محمود حمدي زقزوق «المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت» ــ وهي

(1) ديكارت/ عثمان أمين/ ص 193 وما بعدها.

موضوع رسالته للدكتوراه بالألمانية[1] ـ هي أوفى ما كتب في هذا المجال ويهدف زقزوق من كتابه كما يخبرنا إلى:

1 ـ بيان مدى تطابق أفكار كل من الغزالي وديكارت فيما يتعلق بالشك المنهجي وفي النتائج التي خرج بها كل منهما.

2 ـ الدعوة إلى إعادة النظر في الحكم على الغزالي الذي قيل عنه أنه هدم للفلسفة في الشرق، بينما أحيا ديكارت الفلسفة في أوروبا في العصر الحديث، ويرى أن الغزالي لو كان قد فهم جيداً لكان له تأثير إيجابي في مسار الفكر الإسلامي يوازي تأثير ديكارت في الفلسفة الحديثة[2].

ولتدعيم رأيه يشير إلى الأستاذ المؤرخ التونسي عثمان الكعاك، الذي اكتشف في مكتبة ديكارت ترجمة كتاب «المنقذ من الضلال»، وقد وضع خطاً تحت عبارة «الشك أول مراتب اليقين» وكتب على الهامش «يضاف إلى منهجنا»، ويضيف أن هذا ما أكده الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريده[3]. ويشير أيضاً إلى كتاب سلفادور غومت نوجالس «الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطى»؛ الذي ترجمه الأستاذ عثمان الكعاك[4] والذي يوضح فيه صاحبه تأثيرها الميتافيزيقا الإسلامية في أوروبا، ويبين أن كتاب المنقذ من الضلال للغزالي؛ قد ترجم منذ عهد مبكر إلى اللاتينية وأن عبارة الغزالي (الشك أول مراتب اليقين) صارت عند ديكارت وهو

---

(1) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت/ د. محمود حمدي زقزوق/ النسخة العربية. وهي من ترجمة الدكتور محمود زقزوق نفسه.

(2) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت/ د. زقزوق/ ص 5.

(3) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت/ د. زقزوق/ ص 7.

(4) الفلسفة الإسلامية وتأثيرها الحاسم في فكر الغرب أثناء العصور الوسطى/ سلفادور غومث نوفالسي ترجمة عثمان الكعاك.

يقصد من وراء الكشف عن تأثر ديكارت بالغزالي، أن يكون دافعاً لنا إلى نهضة فلسفية جديدة[1]، وهو يرى أن ما بين الغزالي وديكارت من وجه شبه لا يقتصر فقط على منهج الشك، بل يتعداه إلى نطاق أوسع وأعمق، وهو أهمية هذا الشك المنهجي في تأسيس فلسفتهما وهو موضوع لم يلتفت إليه أحد من الباحثين حتى الآن، وقد كتب د. زقزوق عدة أبحاث في هذا المجال[2].

ويبين محمد شريف في «الفكر الإسلامي منابعه وآثاره» تأثير الغزالي على ديكارت ـ بل يتجاوز ذلك التأثير كل الفلسفة الحديثة ـ ويرى أنه يمكن تقدير فلسفة الغزالي وأفكاره إذا لاحظنا حقيقة مهمة هي أن الغزالي وضع كل الملامح الرئيسة للفلسفة الغربية مبتدئة من ديكارت إلى برجسون، ويستشهد بآراء هنري لويس الذي تحدث في كتابه (تاريخ الفلسفة عن إحياء علوم الدين) «للغزالي فأبرز إلى مدى ما اعتمد عليه الفلاسفة الغربيون على آراء الغزالي في دراساتهم، قال: إن هذا المؤلف يحمل العناصر العلمية؛ وطريقة البحث التي ظهرت فيما بعد في كتاب ديكارت المقال في المنهج»[3] ويوضح لنا أن الالتقاء بين أفكار ديكارت؛ وأفكار الغزالي لم يجيء عفواً، وإنما نتيجة طبيعية لتعرف الأول على أفكار الثاني خلال الترجمات المتعددة[4] وإنهما يتفقان في بعض الخطوات الفكرية عن الشك[5]، وأن الشك عند كليهما لم يكن للهدم؛ وإنهما كان وسيلة للمعرفة والوصول إلى الحقائق...

---

(1) المنهج الفلسفي/ د. زقزوق/ ص 8.

(2) الشك المنهجي عند الغزالي وديكارت/ د. زقزوق/ ص 205 ـ 250.

(3) الفكر الإسلامي منابعه وآثاره/ ترجمة أحمد شلبي/ ص 121.

(4) المصدر السابق/ ص 122.

(5) المصدر السابق/ ص 124.

وإن ديكارت وتلميذه اسبينوزا يتبعان رأي الغزالي، فيما يتعلق بصفات الله وصلتها بالذات[1].

ويقارن زكي نجيب محمود؛ الغزالي بديكارت وبيكون، لقد عاش الغزالي في القرن الحادي عشر الميلادي؛ وجاء بعده بأكثر من خمسة قرون إمامان في أئمة المنهج العلمي؛ هما ديكارت في فرنسا، وبيكون في إنجلترا، ومع ذلك فيكاد لا يكون في منهجهما نقطة واحدة لم يوردها الغزالي شرطاً من شروط النظرة العلمية، ويقارن في صفحات طويلة الغزالي بديكارت في المعقول واللامعقول[2] كما في قوله: «اقرأ للغزالي العبارات الآتية وقارنها بما تعرفه عن أصول المنهج عند ديكارت وبيكون»[3].... ولتعد إلى المنهج الديكارتي المعروف في هيكله وتفصيلاته واقرأ للغزالي عن هذه الخطوات نفسها، الشك في المعلومات التي سبق لنا أن حصلناها عن طريق العقل[4]، لنعد إلى تشكك الغزالي وديكارت.... وهكذا رسم لنا الغزالي طريقاً للشك المنهجي لا نرى بعده شيئاً ننسبه إلى ديكارت[5].

ونجد مثل تلك الإشارات في كتاب محمد إبراهيم الفيومي[6]، وفي الدراسة التي خصصها محمد مبارك لـ «منهجية الشك بين الغزالي وديكارت»[7] إلا أن الموقف المتميز الذي ينبغي أن نشير إليه والذي ينتقل بنا من التأثير بين الغزالي

---

(1) المرجع السابق/ ص 125.

(2) المعقول واللامعقول/ د. زكي محمود/ ص 320 ـ 330.

(3) المرجع السابق/ ص 320.

(4) المرجع السابق/ ص 322.

(5) المرجع نفسه/ ص 324.

(6) الإمام الغزالي وعلاقة اليقين بالعقل/ د. محمد إبراهيم الفيومي/ ص 112 ـ 113.

(7) دراسات في الفكر العربي الإسلامي الوسيط/ محمد مبارك/ ص 55 ـ 64.

وديكارت إلى التشابه بينهما؛ هو الذي يقدم محمد عزيز الحبابي في (ورقات عن فلسفات إسلامية)، يقول موضحاً في القسم الثالث من كتابه (إلى أي مدى أثر الغزالي في الفكر الأوروبي)، لقد وقع شيء بين الغزالي وبعض المفكرين (ديكارت وبسكال) يصعب تسميته (تأثيراً) لكنه تشابه مدهش[1]، فالتشابه جلي بين الغزالي وديكارت بالذات في قضايا منهجية، على الخصوص الشك للوصول إلى الحقيقة، وقواعد المنهج وبتخصيص فقرة هامة عن ديكارت والغزالي[2]؛ حيث يبين نقاط الالتقاء بين النسقين الديكارتي والغزالي، وأن المقارنة بين الغزالي وديكارت التي تتكرر كثيراً والتي تستحق أن ينظر إليها نظرة متمعنة هي قضية الشك.....

إن التشابه (التأثير) بين الغزالية والديكارتية جلي لا مراء فيه؛ من حيث منهج الشك؛ الذي يقرب بين النسقين ويجعلهما يهدفان معاً إلى تحقيق غاية تقربهما بقدر ما تبتعد عنهما[3]؛ وإن نقاط الاتفاق بينهما أكثر من نقاط الاختلاف.

من المنهج إلى ضد المنهج:

يقرر ديكارت أن ثمة مبادئ أربعة يجب مراعاتها في كل منهج يبحث عن الحقيقة، وتكفي هذه المبادئ إذا ما تم اتباعها بدقة للوصول إلى اليقين، وأول مبدأ يحدده ديكارت بقوله «الأول ـ ألا أقبل شيئاً ما على أنه حق، ما لم أعرف يقيناً أنه كذلك، بمعنى أن أتجنب بعناية التهور، والسبق إلى الحكم قبل النظر، وألا أدخل في أحكامي إلا ما يتمثل أمام عقلي في جلاء وتميز، بحيث لا يكون لدي أي مجال لوضعه موضع الشك»[4].

---

(1) ورقات عن فلسفات إسلامية/ محمد عزيز الحبابي/ ص 107.

(2) المرجع السابق/ ص 109 ـ 130.

(3) المرجع السابق/ ص 114.

(4) مقال عن المنهج/ ديكارت ص 75. ترجمة د. محمود محمد الخضيري.

ومع هذا، فإن ديكارت سرعان ما يأتي بقاعدة تتناقض مع هذا المبدأ، عندما يعود إلى وجهة نظر القديس توما الأكويني[1]، ويصرح بأن حقائق الإيمان المسيحي يجب أن تكون أول ما نصدق به، دون البحث عن بداهتها ولا عن وضوحها وتميّزها، بل ويجعل هذه القاعدة فوق كل مبادئه المنهجية الشهيرة؛ فيذهب إلى وجوب أن نتخذ لنا قاعدة معصومة؛ وهي أن ما أوحى الله به؛ هو أوثق بكثير ممّا عداه[2]، ولا يسأل ديكارت نفسه: ما هي طبيعة الأدلة على أن هذه العقائد تعبّر عن وحي إلهي؟ ولا يستدعي أي مقياس من مقاييس النقد التاريخي التي من وظيفتها فحص المنقول عن السلف لبيان مدى مصداقيته التاريخية، وهذا ما نراه عند علماء الحديث النبوي؛ وخصوصاً عند علماء الجرح والتعديل، وهنا نرى أحد الكتّاب يقول: (إن ديكارت إذ يضع أصول الممارسة العقلانية في المبدأ الأول من مبادئ منهجه، فإن سرعان ما يضع أصول الممارسة اللاعقلانية؛ عندما يضع فوق هذا المبدأ وغيره من المبادئ قاعدة عصمة الوحي المسيحي، ولقد أدى هذا إلى منافاة منهجه العقلاني؛ الذي نادى فيه بطرح الأفكار الصادرة عن السلطات؛ أيّاً كانت وجعل معيار البداهة معيار الحق والحقيقة)[3].

من خلال ما سبق يظهر لنا جلياً، أنه يقبل سلطة الإيمان المسيحي؛ ويؤمن بعقائد المسيحية على أنها حقائق لا ريب فيها مع أنها فوق العقل؛ يقول ديكارت:

---

(1) D.E. Cooper, World Philosophies pp. 174 - 5.

وقد قام بترجمة نصوصه صديق لي يوجد عنده هذا الكتاب.

(2) ذكر ديكارت هذا المعنى في أكثر من نص قطعي الدلالة وذلك في كتابه (مبادئ الفلسفة)، ينظر: الترجمة العربية، ص 70، وص 107.

(3) أقنعة ديكارت العقلانية تتساقط/ د. محمد عثمان الخشت/ ص 32.

«يجب علينا أن نؤمن بكل ما أنزله الله، وإن يكن فوق متناول مداركنا» ويفسر هذا بقوله: «إذا أنعم الله علينا بما كشفه لنا أو لغيرنا من أشياء تجاوز طاقة عقولنا في مستواها العادي، كأسرار التجسد والتثليث، لم يستعص علينا الإيمان بها مع أننا قد لا نفهمها فهماً واضحاً؛ ذلك لأنه لا ينبغي أن يقع لدينا موقع الغرابة أن يكون في طبيعة الله وفي أعماله أشياء كثيرة تجاوز متناول أذهاننا»[1].

الآن نريد أن نفسر كلامه ونفهم ما الذي أراده؛ فنجده ادعى في منهجه أنه لن يقبل شيئاً على أنه حق إلا إذا كان واضحاً ومتميزاً، يدعو لتكريس اللامعقولية والغموض بحجة أنه ليس من الغريب أن يكون في طبيعة الله وفي أعماله أشياء كثيرة تجاوز متناول أذهاننا؛ ولم يسأل نفسه ولو للحظة ـ وهو الفيلسوف العقلاني ـ ما طبيعة الدليل على أن تلك العقائد تعبر فعلاً عن حقيقة الله؟ وما الدليل على صدق الوحي في التعبير عن الإرادة الإلهية؟ والغريب أن ديكارت لا يجعل الفكر مقياساً لعقائد التنزيل المسيحي، بل يجعل تلك العقائد مقياساً يقيس به مدى صحة الفكر أو خطئه، يقول ديكارت «إننا ينبغي أن نفضل الأحكام الإلهية على استدلالاتنا، ولكن فيما عدا الأشياء المنزلة ينبغي أن لا نعتقد شيئاً لم ندركه إدراكاً واضحاً جداً»[2].

ويزيد على هذا الأمر فيقول: «ينبغي قبل كل شيء أن نستمسك بقاعدة تعصمنا من الزلل، وهي أن ما أنزله الله هو اليقين الذي لا يعدله شيء آخر، فإذا بدا أن وضمة من وضمات العقل تشير إلينا بشيء يخالف ذلك وجب أن يخضع حكمنا لما يجيء من عند الله»[3].

---

(1) مبادئ الفلسفة/ ديكارت/ ص 70.

(2) المصدر السابق/ ص 107.

(3) المصدر السابق/ ص 108.

الخلاصة التي نتهي إليها أن الحقيقة الدينية عند ديكارت فوق الحقيقة العقلية، وهذه الأخيرة لا قيمة لها إلا في الحقائق التي لم يتحدث عنها الوحي، بل أن الحقيقة العقلية عنده ستفقد نصيبها من الحق إذا ما تعارضت مع الحقيقة الدينية.

استنتاجات:

الحمدلله التي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيد الكائنات محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار.

فقد أرسى بنا البحث على شاطئ الخاتمة، بعد رحلة جالت أغلب أفكار ديكارت، ونستنتج الآن عصارة البحث:ـ

1 ـ أن ديكارت كان توجهه دينياً، ولم يخرج عن ذلك أبداً أبداً، مع ادعائه وإعلانه العقلانية مراراً وتكراراً، فإذا تعرض لموروث مسيحي فإنه يسارع بالقول بأن هذا الأمر لا دخل للعقل فيه؛ وغالباً ما كان هذا الأمر يخالف بداهة العقل السليم.

2 ـ تأثره الواضح بغيره كالإمام الغزالي، حيث أخذ نظرياته، واستفاد منها وحاول أن يطورها وقد نجح في ذلك، هذا الأمر بالذات لم يفعله أحد من المسلمين، بل تركت آراء الإمام الغزالي بدون أي تطور إلى أن جاء ديكارت وطورها وجعلها أصلاً لنهضة أوروبا الحديثة.

3 ـ السبب الذي أنجح ديكارت هو عدم معاداته لأحد؛ وعمله الدؤوب للوصول إلى هدفه؛ وهذا برأيي أهم سبب لنجاح فلسفة ديكارت.

والحمد لله رب العالمين